الفلوجة: التجربة المرة في المواجهة 'الرأسية' الغلط ؟

14-4-2004

ففي عالم السياسة أهم شيء هو (النتيجة) وليس (النيّة). ونتيجة هذه التجربة -أقصد المحصول السياسي لها- في العموم ليس مشجعا، فالخسائر بالنسبة لأهل الفلوجة كانت كبيرة للغاية: خمسة آلاف عائلة نزحت من الفلوجة وتركت بيوتها وممتلكاتها وهامت في الصحراء المحيطة، وسبعمائة قتيل وتخريب مادي

بقلم د. عبد الله النفيسي

حدث في الفلّوجة خلال الأيام القليلة الماضية تجربة مرّة في المقاومة أفصحت عن ثغرات خطيرة. ففي عالم السياسة أهم شيء هو (النتيجة) وليس (النيّة). ونتيجة هذه التجربة -أقصد المحصول السياسي لها- في العموم ليس مشجعا،
فالخسائر بالنسبة لأهل الفلوجة كانت كبيرة للغاية: خمسة آلاف عائلة نزحت من الفلوجة وتركت بيوتها وممتلكاتها وهامت في الصحراء المحيطة، وسبعمائة قتيل وتخريب مادي هائل سببه القصف الأمريكي بالمدفعية والطائرات المقاتلة وحالة الانكسار المعنوي الذي اجتاحت أهل المدينة وهم يلملمون جراحهم وأشتاتهم والجدل السياسي الذي يتصاعد الآن في الفلوجة من حيث إنها مدينة جريحة ومصابة إصابة بليغة تتساءل: من المسئول؟
مقاومة الاحتلال في أي مكان وزمان حق مشروع ولا خلاف على ذلك ولكن: كيف؟ ومتى؟ وأين؟ هذه أسئلة ضرورية وذات أهمية ميدانية. وتجارب الشعوب في مقاومة الاحتلال تجارب غنية وفي كل القارات بما فيها القارة الأمريكية والقارة الأوروبية وليس فقط في آسيا وأفريقيا. ودخول معترك المقاومة ينبغي أن يكون دخولا مدروسا دراسة موضوعية وميدانية وفنية بعيدا تماما عن الانفعال والمنفعلين وردات الفعل الفردية والعشوائية، وإذا لم تتحقق هذه الشرائط الموضوعية والفنية تتحول المقاومة - في محصولها السياسي النهائي - إلى (فشّة خلق).
والمقاومة - أيا كان شكلها ومكانها - هي في الجوهر (حرب) والحرب (أي حرب) لها قوانين ومبادئ، وأهم مبادئها (الثمانية)، مبدأ (الاقتصاد في القوى) وعدم تبديدها في مواجهات رأسية كما حدث في الفلوجة. والمقاومة - خاصة في عراق اليوم- هي مقاومة الضعيف للقوي وهو قوي يتمنى اختزال المقاومة في مواجهات رأسية مباشرة حتى يثبت تفوقه ويحسم الموقف لصالحه وهو بالضبط ما أعطاه المقاتلون في الفلوجة للأمريكان على طبق من ذهب.
والمواجهات الرئيسية المباشرة التي تكررت في الفلوجة سهلت مهمة الأمريكان في حسم الموقف لصالحهم وبات المقاتلون في الفلوجة يتصرفون كأنهم في حرب نظامية مع الجيش الأمريكي وهو أمر يفصح عن غياب الرؤية الموضوعية للميدان في العراق والفلوجة خصوصاً.
الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة تتفوق لاشك عسكرياً على شعوب العالم الثالث ودوله. لكن من الملاحظات الجوهرية في حرب المقاومة ضد الاحتلال في العراق أن نعي بأن الدول الغربية وشعوبها غير عصية من جهة الاختراق السياسي وهذا ما أثبته الإيرانيون في السنوات الأولى للثورة في إيران وخاصة فترة 1979 ـ 1982 خلال أزمة الرهائن في طهران والمخطوفين في بيروت وهي أزمة أسقطت إدارة كارتر وأخرجته من البيت الأبيض ويقول بعض المهتمين بالشؤون العراقية هذه الأيام إنه من الممكن لو أعيد نفس سيناريو 1979 ـ 1982 أن

يسقط جورج بوش في انتخابات نوفمبر القادم وتخرج إدارته من البيت الأبيض ويتنفس العالم الصعداء. يقول جاري سيك عضو مجلس الأمن القومي في الولايات المتحدة في عهد إدارة كارتر إن الرئيس كارتر فقد أعصابه وهو يتابع مسلسل الرهائن على شاشة التلفاز في غرفة عمليات البيت الأبيض، وفي اجتماع آخر يقول جاري سيك إن الرئيس كارتر دخل في حالة ذهول وانكسار وهو يستمع لمستشاريه يناقشون موضوع الرهائن والمختطفين فقال كارتر دون أن ينظر إلى أحد :"إن الإيرانيين يضغطون علينا في مواقع موجعة". انظر كتاب جاري سيك الموسوم All Fall Down ص 209 - 210، لا أدري لماذا تذكرت كل ذلك خلال متابعة ما يدور في الفلوجة ثم تذكرت جون مكارثي وتيري ريت وبريان كينان وتيري اندرسون وتوم سذرلاند وديفيد جيكبسون وفرانك ريد وغيرهم من الذي تمكن - من خلالهم - الإيرانيون تحقيق أكبر ضغط على الخيارات الأمريكية لصالح إيران في تلك السنوات الخوالي.

ويبدو أن التغطية الإعلامية الغربية (والأمريكية خصوصاً) لعمليات الاختطاف وما يرافقها من تحريك للخزين النفسي في الغرب وهو خزين هش للغاية تحقق نتائج ملموسة في الضغط على القرارات الاستراتيجية هناك في الغرب أكثر من عمليات المواجهات العسكرية الرئيسية مع قوات الاحتلال وهذا أيضا درس ومحصول تكتيكي لموضوع الفلوجة: التجربة المرة في المواجهة الرأسية الغلط.

هذا رأي لا نزعم له العصمة من الخطأ ومن عنده شيء آخر فليأت به.